فى كتاب الجامع قال ابن وهب سئل مالك أين يقف من أراد التسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبر قال عند الزاوية التى تلى القبلة مما يلى المنبر مستقبل القبلة ولا أحب أن يمس القبر بيده انما قال ذلك لانه شاهد الناس يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم فاستحب الاقتداء بهم ولا يمس قبره ولا حائطه تعظيما له ولان ذلك لم يكن عليه فعل من مضى وهذه النسخة يحتمل أن تكون غلطا لان رواية ابن وهب عن مالك كما تقدم أن المسلم يستقبل القبر لا القبلة ويشهد لها رواية أبى موسى وكلام المالكية ويحتمل أن يكون عنه فى ذلك روايتان (احداهما) كمذهب أبى حنيفة رحمه الله (والاخرى) هى المشهورة ولو ثبت عن مالك وعن غيره ان الاولى استقبال القبلة فى الدعاء لا القبر لم يكن فى ذلك شئ من منع الزيارة ولا السفر ولا مانعا من تعظيم القبر ومن اعتقد ذلك فقد ضل وكل ما ذكره بعد ذلك تقدم الجواب عنه وأنه لا يدل على مقصوده

﴿ الباب الثامن فى التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم الى ربه سبحانه وتعالى وجواز ذلك وحسنه من الامور المعلومة لكل ذى دين المعروفة من فعل الانبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين ولم ينكر أحد ذلك من أهل الاديان ولا سمع به فى زمن من الازمان حتى جاء ابن تيمية فتكلم فى ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الاغمار وابتدع ما لم يسبق اليه فى سائر الاعصار ولهذا طعن فى الحكاية التى تقدم ذكرها عن مالك فان فيها قول مالك للمنصور واستشفع به ونحن قد بينا صحتها ولذلك أدخلنا الاستغاثة فى هذا الكتاب لما يعرض اليها مع الزيارة وحسبك أن انكار ابن تيمية للاستغاثة

والتوسل قول لم يقله عالم قبله وصار به بين أهل الاسلام مثله وقد وقفت له على كلام طويل فى ذلك رأيت من الرأى القويم أن أميل عنه الى الصراط المستقيم ولا أتتبعه بالنقض والابطال فان دأب العلماء القاصدين لايضاح الدين وارشاد المسلمين تقريب المعنى الى افهامهم وتحقيق مرادهم وبيان حكمه ورأيت كلام هذا الشخص بالضد من ذلك فالوجه الاضراب عنه (وأقول) ان التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم جائز فى كل حال قبل خلقه وبعد خلقه فى مدة حياته فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة والجنة وهو على ثلاثة أنواع (النوع الاول) أن يتوسل به بمعنى ان طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو بجاهه أو ببركته فيجوز ذلك فى الاحوال الثلاثة وقد ورد فى كل منها خبر صحيح أما الحالة الاولى قبل خلقه فيدل لذلك آثار عن الانبياء الماضين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اقتصرنا منها على ماتبين لنا صحته وهو ما رواه الحاكم أبو عبد الله بن البيع فى المستدرك على الصحيحين أو أحدهما قال حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور العدل حدثنا أبو الحسن محمد بن اسحق بن ابراهيم الحنظلى حدثنا أبو الحرث عبد الله بن مسلم الفهرى حدثنا اسمعيل بن مسلمة أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اقترف آدم عليه السلام الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال الله يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه قال يارب لانك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لم تضف الى اسمك الا أحب الخلق اليك فقال الله صدقت يا آدم انه لأحب الخلق الى اذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك * قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذا الكتاب ورواه

البيهقي أيضا في دلائل النبوة وقال تفرد به عبد الرحمن وذكره الطبراني وزاد فيه وهو آخر الانبياء من ذريتك (وذكر الحاكم) مع هذا الحديث أيضا عن علي بن حماد العدل حدثنا هرون بن العباس الهاشمي حدثنا جندل ابن والق حدثنا عمرو بن أوس الانصاري حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال أوحى الله الى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولولاه ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا اله الا الله فسكن قال الحاكم هذا حديث حسن صحيح الاسناد ولم يخرجاه انتهى ما قاله الحاكم والحديث المذكور لم يقف عليه ابن تيمية بهذا الاسناد ولا بلغه أن الحاكم صححه فانه قال أعني ابن تيمية أما ما ذكره في قصة آدم من توسله فليس له أصل ولا نقله أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم باسناد يصلح للاعتماد عليه ولا الاعتبار ولا الاستشهاد ثم ادعى ابن تيمية أنه كذب وأطال الكلام في ذلك جدا بما لا طائل تحته بالوهم والتخرص ولو بلغه أن الحاكم صححه لما قال ذلك أو لتعرض للجواب عنه وكأني به ان بلغه بعد ذلك يطعن في عبد الرحمن بن زيد بن أسلم راوي الحديث ونحن نقول قد اعتمدنا في تصحيحه على الحاكم وأيضا عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لا يبلغ في الضعف الى الحد الذي ادعاه وكيف يحل لمسلم أن يتجاسر على منع هذا الامر العظيم الذي لا يرده عقل ولا شرع وقد ورد فيه هذا الحديث وستزيده هذا المعنى صحة وتثبيتا بعد استيفاء الاقسام وأما ما ورد من توسل نوح وابراهيم وغيرهما من الانبياء فذكره المفسرون واكتفينا عنه بهذا الحديث لجودته وتصحيح الحاكم له ولا فرق في هذا المعنى بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل أو الاستغاثة أو التشفع أو التوجه والداعي بالدعاء المذكور وما في معناه متوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم لانه جعله وسيلة لاجابة الله دعاءه ومستغيث

به والمعنى أنه استغاث الله به على ما يقصده فالباء ههنا للسببية وقد ترد للتعدية كما تقول من استغاث بك فأغثه ومستشفع به ومتوجه به ومتوجه فان التوجه والتوجه راجعان الى معنى واحد « فان قلت » المتشفع بالشخص من جاء به ليشفع له فكيف يصح أن يقال يتشفع به قلت ليس الكلام في العبارة وانما الكلام في المعنى وهو سؤال الله بالنبي صلى الله عليه وسلم كما ورد عن آدم وكما يفهم الناس من ذلك وانما يفهمون من التشفع والتوسل والاستغاثة والتوجه ذلك ولا مانع من اطلاق اللغة هذه الالفاظ على هذا المعنى والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله قدرا ومرتبة ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله قدر علي ومرتبة رفيعة وجاه عظيم وفي العادة ان من كان له عند الشخص قدر بحيث انه اذا شفع عنده قبل شفاعته فاذا انتسب اليه شخص في غيبته وتوسل بذلك وتشفع به فان ذلك الشخص يجيب السائل اكراما لمن انتسب اليه وتشفع به وان لم يكن حاضرا ولا شافعا وعلى هذا التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل خلقه ولا ينافي ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين الا اياه ويكون ذكر المحبوب أو العظيم سببا للاجابة كما في الادعية الصحيحة المأثورة أسألك بكل اسم هو لك وأسألك بأسمائك الحسنى وأسألك بأنك أنت الله وأعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك وحديث الغار الذي فيه الدعاء بالاعمال الصالحة وهو من الاحاديث الصحيحة المشهورة فالمسؤل في هذه الدعوات كلها هو الله وحده لا شريك له والمسؤل به مختلف ولم يوجب ذلك اشراكا ولا سؤال غير الله كذلك السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا للنبي صلى الله عليه وسلم بل سؤال لله به واذا جاز السؤال بالاعمال وهي مخلوقة فالسؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم أولى ولا يسمع الفرق بأن الاعمال تقتضي المجازاة عليها لان استجابة الدعاء لم تكن عليها والا لحصلت بدون ذكرها وانما كانت على الدعاء بالاعمال وليس هذا

المعنى مما يختلف فيه الشرائع حتى يقال إن ذلك شرع من قبلنا فانه لو كان ذلك مما يخل بالتوحيد لم يحل فى ملة من الملل فان الشرائع كلها متفقة على التوحيد وليت شعرى ما المانع من الدعاء بذلك فان اللفظ انما يقتضى أن للمسؤل به قدرا عند المسؤل وتارة يكون المسؤل به أعلى من المسؤل أما البارى سبحانه وتعالى فكما فى قوله من سألكم بالله فأعطوه وفى الحديث الصحيح فى حديث أبرص وأقرع وأعمى أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن الحديث وهو مشهور وأما بعض البشر فيحتمل أن يكون من هذا القسم قول عائشة لفاطمة أسألك بحالى عليك من الحق وتارة يكون المسؤل أعلى من المسؤل به كما فى سؤال الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم فانه لاشك أن النبى صلى الله عليه وسلم قدرا عنده ومن أنكر ذلك فقد كفر فتى قال أسألك بالنبى صلى الله عليه وسلم فلا شك فى جوازه وكذا اذا قال بحق محمد والمراد بالحق الرتبة والمنزلة والحق الذى جعله الله على الخلق أو الحق الذى جعله الله بفضله له عليه كما فى الحديث الصحيح قال فما حق العباد على الله وليس المراد بالحق الواجب فانه لا يجب على الله شئ وعلى هذا المعنى يحمل ما ورد عن بعض الفقهاء فى الامتناع من اطلاق هذه اللفظة (الحالة الثانية) التوسل به بذلك النوع بعد خلقه صلى الله عليه وسلم فى مدة حياته فمن ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه فى كتاب الدعوات قال حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا البصر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافينى قال ان شئت دعوت وان شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد انى توجهت بك الى ربى فى حاجتى ليقضى لى اللهم شفعه فى * قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث

أبي جعفر الخطمي ورواه النسائي في اليوم والليلة عن محمود بن غيلان باسناده نحوه وعن محمد بن معمر عن حبان عن حماد عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة عن عثمان ابن حنيف نحوه وعن زكريا بن يحيى عن ابن مثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أبي امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بنحوه وأخرجه ابن ماجه في الصلاة عن أحمد بن منصور ابن سيار عن عثمان بن عمر باسناده نحوه * ورويناه في دلائل النبوة للحافظ أبي بكر البيهقي ثم قال البيهقي وزاد محمد بن يونس في روايته فقال فقام وقد أبصر قال البيهقي ورويناه في كتاب الدعوات باسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة قال ففعل الرجل فبرأ قال وكذلك رواه حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي ثم روى باسناده عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني وهو الخطمي عن أبي امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف فذكره وفي آخره يا محمد اني أتوجه بك الى ربي فيجلي عن بصري اللهم شفعه في وشفعني في نفسي قال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضرر قط وسنذكر هذا الحديث أيضا في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته من طريق الطبراني والبيهقي وقد كفانا الترمذي والبيهقي رحمهما الله بتصحيحهما مؤونة النظر في تصحيح هذا الحديث وناهيك به حجة في المقصود فان اعترض معترض بأن ذلك انما كان لان النبي صلى الله عليه وسلم شفع فيه فلهذا قال له أن يقول اني توجهت اليك بنبيك قلت الجواب من وجوه (أحدها) سيأتي ان عثمان بن عفان وغيره استعملوا ذلك بعد موته صلى الله عليه وسلم وذلك يدل على أنهم لم يفهموا اشتراط ذلك (الثاني) أنه ليس في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم بين له ذلك (الثالث) انه ولو كان كذلك لم يضر في حصول المقصود وهو جواز التوسل الى الله بغيره بمعنى السؤال بها كما علمه النبي صلى الله عليه وسلم وذلك زيادة على طلب الدعاء منه فلو لم يكن في ذلك فائدة لما علمه النبي صلى الله عليه وسلم وأرشده اليه

ويقال له انى قد شفعت فيك ولكن لعله صلى الله عليه وسلم أراد أن يحصل من صاحب الحاجة التوجه بذل الاضطرار والافتقار والانكسار مستغيثا بالنبى صلى الله عليه وسلم فيحصل كمال مقصوده ولا شك أن هذا المعنى حاصل فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وغيبته فى حياته وبعد وفاته فانا نعلم شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ورفقه بهم ورحمته لهم واستغفاره لجميع المؤمنين وشفاعته فاذا انضم اليه توجه العبد به حصل هذا الغرض الذى أرشد النبى صلى الله عليه وسلم الاعمى اليه (الحالة الثالثة) أن يتوسل بذلك بعد موته صلى الله عليه وسلم لما رواه الطبرانى رحمه الله فى المعجم الكبير فى ترجمة عثمان بن حنيف وذلك فى الجزء الخمسين فان أول الجزء الخمسين من اسمه طفيل وآخره جعلنى امامهم وأنا أصغرهم قبل ترجمة عثمان بن طلحة قال فى هذا الجزء الخمسين حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصرى حدثنا أصبغ بن الفرج حدثنا ابن وهب عن أبى سعيد المكى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر الخطمى المدنى عن أبى امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت اليه ولا ينظر فى حاجته فلقى ابن حنيف فشكا ذلك اليه فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل اللهم انى أسئلك وأتوجه اليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة يا محمد انى أتوجه بك الى ربك فيقضى حاجتى وتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان ابن عفان فأجلسه معه على الطنفسة فقال ما حاجتك فذكر حاجته وقضاها له ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة وقال ما كانت لك من حاجة فاذكرها ثم ان الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان

ينظر فى حاجتى ولا يلتفت الى حتى كلمته فى فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمه ولكنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا اليه ذهاب بصره فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أو تصبر فقال يا رسول الله انه ليس لى قائد وقد شق على فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات قال ابن حنيف فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط * حدثنا ادريس بن جعفر العطار حدثنا عثمان بن عمر ابن فارس حدثنا شعبة عن أبى جعفر الخطمى عن أبى امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه البيهقى باسناده عن أبى جعفر المدينى عن أبى امامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان فذكره بنحو مما سبق رواه من طريقين أحدهما عن عبد الملك بن أبى عثمان الزاهد أنبأنا أبو بكر محمد بن على بن اسمعيل الشاشى القفال أنبأنا أبو عروبة حدثنا العباس بن الفرج حدثنا اسمعيل بن شبيب حدثنا أبى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر والاحتجاج من هذا الاثر لفهم عثمان رضى الله تعالى عنه ومن حضره الذين هم أعلم بالله ورسوله وفعلهم (النوع الثانى) التوسل به بمعنى طلب الدعاء منه وذلك فى أحوال احداها فى حياته صلى الله عليه وسلم وهذا متواتر والاخبار طافحة به ولا يمكن حصرها وقد كان المسلمون يفزعون اليه ويستغيثون به فى جميع ما نابهم كما فى الصحيحين أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما قال يا رسول الله هلكت الاموال وانقطعت السبل فادع الله تعالى يغيثنا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال اللهم أغثنا اللهم أغثنا فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت قال فلا والله ما رأينا الشمس ستا الحديث * وروى البيهقى فى دلائله عن أبى وجزة يزيد بن عبد السلمى

قال لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أتاه وفد بني فزارة الى أن قال فقالوا يا رسول الله أسنتت بلادنا وأجدبت جناتنا وعريت عيالنا وهلكت مواشينا فادع ربك أن يغيثنا واشفع لنا الى ربك ويشفع ربك اليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله ويلك أنا شفعت الى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا اليه لا اله الا هو العظيم وسع كرسيه السموات والارض وهو يئط من عظمته وجلاله وذكر بقية الحديث الى أن قال فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر وفيه كان مما حفظ من دعائه اللهم اسق بلدك وبهيمتك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت وذكر دعاء وحديثا طويلا وفي سنن أبي داود في كتاب السنة عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابي فقال يا رسول الله جهدت الانفس وضاعت العيال ونهكت الاموال وهلكت الانعام فاستسق الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك أتدري ما تقول انه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك وذكر حديث الاطيط وفي اسناده محمد بن اسحق وعنعنه فان ثبت فهو موافق لمقصودنا فانه لم ينكر الاستشفاع به وانما أنكر الاستشفاع بالله ولعل سبب ذلك أن شأن الشافع أن يتواضع للمشفوع عنده * وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أتيناك ومالنا صبي يصطبح ولا بعير يئط وأنشد

أتيتك والعذراء تدمى لبانها * وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة * من الجوع هونا ما يعير ولا يحلى
ولا شئ مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل
وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه ثم قال

اللهم اسقنا وذكر الدعاء الى أن قال فما رد النبي صلى الله عليه وسلم يده حتى القت السماء بأرواقها وجاء أهل البطانة يضجون الغرق الغرق فقال النبي صلى الله عليه وسلم حوالينا ولا علينا فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالاكليل وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال لله در أبي طالب لو كان حي اقرت عيناه من ينشدنا قوله فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يارسول الله كأنك تريد قوله

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وتواصل
كذبتم وبيت الله نبزى محمدا * ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل فقام رجل من كنانة رضي الله تعالى عنه فقال

لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبي المطر
دعا الله خالقه دعوة * اليه وأشخص منه البصر
فما بلغ الا كما ساعة * وأسرع حتى رأينا الدرر
دفاق العزالي جم البعاق * أغاث به الله عليا مضر
فكان كما قاله عمه * أبو طالب أبيض ذو غرر
فمن يشكر الله يلق المزيد * ومن يكفر الله يلق الغرر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لك شاعرا أحسن فقد أحسنت والاحاديث والآثار في ذلك أكثر من أن تحصى ولو تتبعتها لوجدت منها ألوفا ونص قوله تعالى ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول الآية صريح في ذلك وكذلك يجوز ويحسن مثل هذا التوسل بمن له نسبة من النبي صلى

الله عليه وسلم كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا قحط استسقى بالعباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه ويقول اللهم انا كنا اذا قحطنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاسقنا قال فيسقون رواه البخارى من حديث أنس واستسقى به عام الرمادة فسقوا وفى ذلك يقول عباس بن عتبة بن أبى لهب

بعمى سقى الله الحجاز وأهله * عشية يستسقى بشيبته عمر

واستسقى حمزة بن القاسم الهاشمى ببغداد فقال اللهم إنا من ولد ذلك الرجل الذى استسقى بشيبته عمر بن الخطاب فسقوا فما زال يتوسل بهذه الوسيلة حتى سقوا وروى أنه لما استسقى عمر بالعباس وفرغ عمر من دعائه قال العباس اللهم انه لم ينزل من السماء بلاء الا بذنب ولا يكشف الا بتوبة وقد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا اليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وذكر دعاء فما تم كلامه حتى ارتجت السماء بمثل الجبال * وكذلك يجوز مثل هذا التوسل بسائر الصالحين وهذا شئ لا ينكره مسلم بل متدين بملة من الملل * فان قيل لم توسل عمر بن الخطاب بالعباس ولم يتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بقبره * قلنا ليس فى توسله بالعباس انكار التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بالقبر وقد روى عن أبى الجوزاء قال قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا الى عائشة رضى الله عنها فقالت فانظروا قبر النبى صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوى الى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الابل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق ولعل توسل عمر بالعباس لأمرين (أحدهما) ليدعو كما حكينا من دعائه (والثانى) أنه من جملة من يستسقى وينتفع بالسقيا وهو محتاج اليها بخلاف النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحالة فانه مستغن عنها فاجتمع فى العباس الحاجة وقربه من

النبي صلى الله عليه وسلم وشيبه والله تعالى يستحي من ذي الشيبة المسلم فكيف من عم نبيه صلى الله عليه وسلم ويجيب دعاء المضطر فلذلك استسقى عمر بشيبته فان قال المخالف أنا لا أمنع التوسل والتشفع لما قدمتم من الآثار والادلة وانما أمنع اطلاق التجوه والاستغاثة لان فيهما ايهام أن المتجوه به والمستغاث به أعلى من المتجوه عليه والمستغاث عليه (قلنا) هذا لا يعتقده مسلم ولا يدل لفظ التجوه والاستغاثة عليه فان التجوه من الجاه والوجاهة ومعناه علو القدر والمنزلة وقد يتوسل بذي الجاه الى من هو أعلى جاها منه والاستغاثة طلب الغوث فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وان كان أعلى منه فالتوسل والتشفع والتجوه والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء والصالحين ليس لها معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بها أحد منهم سواه فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه نسأله العافية واذا صح المعنى فلا عليك في تسميته توسلا أو تشفعا أو تجوها أو استغاثة ولو سلم أن لفظ الاستغاثة يستدعي النصر على المستغاث منه فالعبد يستغيث على نفسه وهواه والشيطان وغير ذلك مما هو قاطع له عن الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء والصالحين متوسلا بهم الى الله تعالى ليغيثه على من استغاث منه من النفس وغيرها والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث

(الحالة الثانية) بعد موته صلى الله عليه وسلم في عرصات القيامة بالشفاعة منه صلى الله عليه وسلم وذلك مما قام الاجماع عليه وتواترت الاخبار به وسنذكر تفاصيل الشفاعة المجمع عليها والمختلف فيها في هذا الكتاب ان شاء الله تعالى (الحالة الثالثة) المتوسطة في مدة البرزخ وقد ورد هذا النوع فيها أيضا أنبأنا أبو بكر ابن يوسف بن عبد العظيم المعروف بابن الصباح بقراءتي عليه في المجلد الحادية عشرة من دلائل النبوة للبيهقي قال أنبأنا أبو الكرم لاحق بن عبد المنعم بن قاسم

الارتاحي قراءة عليه وأنا أسمع أنبأنا أبو محمد المبارك بن علي بن الحسين البغدادي المعروف بابن الطباخ أنبأنا الشيخ السديد أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد البيهقي أنبأنا جدي الامام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي أنبأنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا أخبرنا أبو عمر بن مطر حدثنا ابراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى أنبأنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبي صالح عن (١) مالك الدار قال أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله استسق الله لأمتك فانهم قد هلكوا فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره انهم مسقون وقل له عليك الكيس الكيس فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال يا رب ما آلوا الا ما عجزت عنه * ومحل الاستشهاد من هذا الاثر طلبه الاستسقاء من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته في مدة البرزخ ولا مانع من ذلك فان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لربه تعالى في هذه الحالة غير ممتنع وقد وردت الاخبار على ما ذكرنا ونذكر طرفا منه وعلمه صلى الله عليه وسلم بسؤال من يسأله ورد أيضا ومع هذين الامرين فلا مانع من أن يسأل الله صلى الله عليه وسلم الاستسقاء كما كان يسأل في الدنيا (النوع الثالث) من التوسل أن يطلب منه ذلك الامر المقصود بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته اليه فيعود الى النوع الثاني في المعنى وان كانت العبارة مختلفة ومن هذا قول القائل للنبي صلى الله عليه وسلم أسألك مرافقتك في الجنة قال أعني على نفسك بكثرة السجود * والآثار في ذلك كثيرة أيضا ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك الا كون النبي صلى الله عليه وسلم سببا وشافعا وكذلك جواب النبي صلى الله عليه وسلم وان ورد على حسب السؤال كما روينا في دلائل النبوة للبيهقي بالاسناد الى عثمان بن أبي العاص

قال شكوت الى النبي صلى الله عليه وسلم سوء حفظي للقرآن فقال شيطان يقال له خنزب ادن مني ياعثمان ثم وضع يده على صدري فوجدت بردها بين كتفي وقال اخرج ياشيطان من صدر عثمان قال فما سمعت بعد ذلك شيأ الا حفظته فانظر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج للشيطان للعلم بأن ذلك باذن الله تعالى وخلقه وتيسيره وليس المراد نسبة النبي صلى الله عليه وسلم الى الخلق والاستقلال بالافعال هذا لا يقصده مسلم فصرف الكلام اليه ومنعه من باب التلبيس في الدين والتشويش على عوام الموحدين واذ قد تحررت هذه الانواع والاحوال في الطلب من النبي صلى الله عليه وسلم وظهر المعنى فلا عليك في تسميته توسلا أو تشفعا أو استغاثة أو تجوها أو توجها الان المعنى في جميع ذلك سواء (أما التشفع) فقد سبق في الاحاديث المتقدمة قول وفد بني فزارة للنبي صلى الله عليه وسلم تشفع لنا الى ربك وفي حديث الاعمى ما يقتضيه أيضا والتوسل في معناه وأما التوجه والسؤال ففي حديث الاعمى والتجوه في معنى التوجه قال تعالى في حق موسى عليه السلام (وكان عند الله وجيها) وقال في حق عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام (وجيها في الدنيا والآخرة) وقال المفسرون وجيها أي ذا جاه ومنزلة عنده وقال الجوهري في فصل وجه وجيها ذا جاه وقدر وقال الجوهري أيضا في فصل جوه الجاه القدر والمنزلة وفلان ذو جاه وقد أوجهته ووجهته انا أي جعلته وجيها وقال ابن فارس فلان وجيه ذو جاه اذا عرف ذلك فمعنى تجوه وتوجه بجاهه وهو منزلته وقدره عند الله تعالى اليه (وأما الاستغاثة) فهي طلب الغوث وتارة يطلب الغوث من خالقه وهو الله تعالى وحده كقوله تعالى اذ تستغيثون ربكم * وتارة يطلب ممن يصح اسناده اليه على سبيل الكسب ومن هذا النوع الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي هذين القسمين تعدى الفعل تارة بنفسه كقوله تعالى اذ تستغيثون ربكم فاستغاثه الذي من شيعته وتارة بحرف الجر كما في كلام النحاة في

المستغاث به وفي كتاب سيبويه رحمه الله تعالى فاستغاث بهم ليشتروا له كليبا فيصح أن يقال استغثت النبي صلى الله عليه وسلم وأستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم بمعنى واحد وهو طلب الغوث منه بالدعاء ونحوه على النوعين السابقين في التوسل من غير فرق وذلك في حياته وبعد موته ويقول استغثت الله وأستغيث بالله بمعنى طلب خلق الغوث منه فالله تعالى مستغاث فالغوث منه خلقا وايجادا والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث والغوث منه تسببا وكسبا ولا فرق في هذا المعنى بين أن يستعمل الفعل متعديا بنفسه أو لازما أو تعدى بالباء وقد تكون الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم على وجه آخر وهو أن يقال استغثت الله بالنبي صلى الله عليه وسلم كما تقول سألت الله بالنبي صلى الله عليه وسلم فيرجع الى النوع الاول من أنواع التوسل ويصح قبل وجوده وبعد وجوده وقد يحذف المفعول به ويقال استغثت بالنبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى فصار لفظ الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم له معنيان (احدهما) أن يكون مستغاثا (والثاني) أن يكون مستغاثا به والباء للاستعانة فقد ظهر جوازا طلاق الاستغاثة والتوسل جميعا وهذا أمر لا يشك فيه فان الاستغاثة في اللغة طلب الغوث وهذا جائز لغة وشرعا من كل من يقدر عليه بأي لفظ عبر عنه كما قالت أم اسمعيل أغث ان كان عندك غواث وقد روينا في المعجم الكبير للطبراني حديثا ظاهره قد يقدح في هذا قال الطبراني حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة المصري حدثنا سعيد بن عفير حدثنا ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن علي بن رباح عن عبادة قال قال أبو بكر رضي الله عنه قوموا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لا يستغاث بي انما يستغاث بالله عز وجل وهذا الحديث في اسناده عبد الله بن لهيعة وفيه كلام مشهور فان صح الحديث فيحتمل معاني (أحدها) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أجرى على المنافقين أحكام المسلمين بأمر الله

تعالى فلعل أبا بكر ومن معه استغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقتله فأجاب بذلك بمعنى ان هذا من الاحكام الشرعية التي لم ينزل الوحي بها وأمرها الى الله تعالى وحده والنبي صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بالله تعالى فلم يكن يسأل ربه تغيير حكم من الاحكام الشرعية ولا يفعل فيها الا ما يأمره به فيكون قوله لا يستغاث بي عاما مخصوصا أي لا يستغاث بي في هذا الامر لانه مما يستأثر الله تعالى به ولا شك ان من أدب السؤال أن يكون المسؤل ممكنا فكما انا لا نسأل الله تعالى الا ما هو في مكن القدرة الالهية كذلك لا نسأل النبي صلى الله عليه وسلم الا ما يمكن أن يجيب اليه (والثاني) أن يكون ذلك من باب قوله ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم أي أنا وان استغيث بي فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى وكثيرا ما تجيء السنة بنحو هذا من بيان حقيقة الامر ويجيء القرآن باضافة الفعل الى مكتسبه كقوله صلى الله عليه وسلم ان يدخل أحدا منكم الجنة عمله مع قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وقال صلى الله عليه وسلم لعلي لأن يهدي الله بك رجلا واحدا فسلك الادب في نسبة الهداية الى الله تعالى وقد قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا فنسب الهداية اليهم وذلك على سبيل الكسب ومن هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وانك لتهدي الى صراط مستقيم وأما قوله تعالى انك لا تهدي من أحببت فالأحسن أن يكون المراد به التسلية والحمل عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم في عدم اسلام عمه أبي طالب فكأنه قد قيل أنت وفيت بما عليك وليس عليك خلق هدايته لان ذلك ليس اليك فلا تذهب نفسك عليه * وبالجملة اطلاق لفظ الاستغاثة بالنسبة لمن يجعل منه غوث إما خلقا وايجادا وإما تسببا وكسبا أمر معلوم لا شك فيه لغة وشرعا ولا فرق بينه وبين السؤال فتعين تأويل الحديث المذكور وقد قيل ان في البخاري في حديث الشفاعة يوم القيامة فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو حجة

فى اطلاق لفظ الاستغاثة ولكن ذلك لا يحتاج اليه لان معنى الاستغاثة والسؤال واحد سواء عبر عنه بهذا اللفظ أم بغيره والنزاع فى ذلك نزاع فى الضروريات وجوازه شرعا معلوم فتخصيص هذه اللفظة بالبحث مما لا وجه له وانكار السؤال بالنبى صلى الله عليه وسلم مخالف لما قدمناه من الاحاديث والآثار وما أشرنا اليه مما لم نذكره

﴿ الباب التاسع فى حياة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ﴾

قد تضمنت الاحاديث المتقدمة أن روح النبى صلى الله عليه وسلم ترد عليه وانه يسمع ويرد السلام فاحتجنا الى النظر فيما قد قيل فى ذلك بالنسبة الى الانبياء والشهداء وسائر الموتى وقد رتبنا الكلام فى هذا الباب على فصول *

﴿ الفصل الاول فيما ورد فى حياة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ﴾ صنف الحافظ أبو بكر البيهقى رحمه الله فى ذلك جزأ وروى فيه احاديث منها الانبياء صلوات الله عليهم أحياء فى قبورهم يصلون * ورواه ابن عدى فى الكامل أنبأنا غير واحد اذنا عن ابن المقير عن ابن الشهرزورى أنبأنا اسمعيل بن مسعدة أنبأنا حمزة بن يوسف أنبأنا أحمد بن عدى الحافظ قال حدثنا قسطنطين بن عبد الله الرومى مولى المعتمد على الله أمير المؤمنين حدثنا الحسين بن عرفة حدثنى الحسن بن قتيبة المدائنى حدثنا المستلم بن سعيد الثقفى عن الحجاج الاسود عن ثابت البنانى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الانبياء صلوات الله عليهم أحياء فى قبورهم يصلون * قال ابن عدى وللحسن بن قتيبة هذا أحاديث غرائب حسان فأرجو أنه لا بأس به وذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا وذكره الخطيب فى التاريخ وقال عن البرقانى عن الدارقطنى انه متروك الحديث وروى البيهقى هذا الحديث فى صدر الجزء الذى صنفه عن أبى سعيد أحمد بن محمد بن الخليل الصوفى عن ابن عدى بسنده